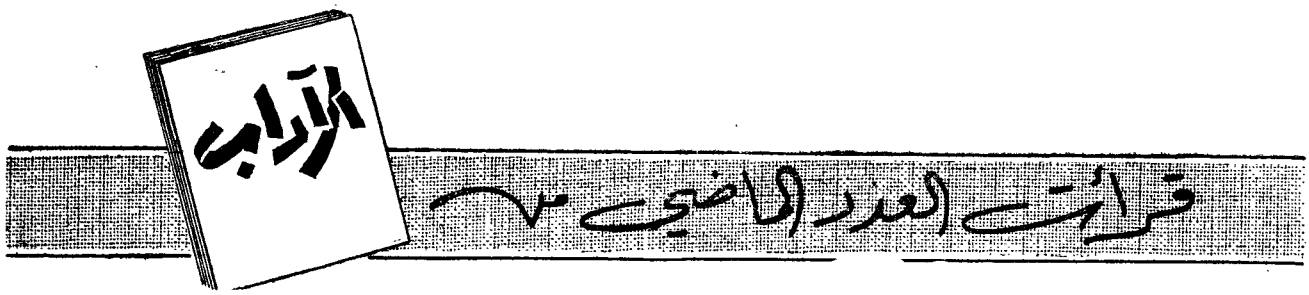

الأبحاث

بقلم الدكتور حافظ الجمالي

كان صدر « الآداب » في هذه المرة للاستاذ رئيف خوري في مقاله « انا عائد من مصر » . ولقد احسنت (الآداب) فيما فعلت . ذلك ان هذا الجو الذي تملأه الدعايات المعرضه ، حول ما يجري في مصر ، جو يحتاج إلى تبديد الشبهات ، وكشف النقاب عن الحق ، وازاله ما قد يكون عل حتى بالنفوس المخلصه من شكوك ، او ريب ، او ظنون ..

وكانت الاتهامات التي يحاول الاستاذ الخوري الرد عليها غير قليله : مصر تتبع سياسة تمييز ديني ، ولا يلقى المسيحي فيها الا كل اضطهاد . غير انها في الوقت نفسه تنجرف في التيار الشيوعي ! ثم أن مصر ضيقة الصدر باللبنانيين ، ولعلها كذلك ضيقة الصدر بالعراقيين ، والاردنيين والسعوديين . واخيرا فان المعارضه هناك تشتد ، ويتبع ذلك ان حركة القمع تشتد ايضا .

ولقد وفق الاستاذ الخوري في الرد على هذه الاتهامات ، اجمل توفيق . وكان مقاله صرخة بريئة من صرخات الحق في وجه الباطل . ولعلنا نحتاج مع شهادة الاستاذ الخوري الى الف شهادة مماثلة حتى نستطيع ان نقيم الحجة على خصوم مصر والعروبة والسياسة المتحررة .

غير ان القضية في هذه الاتهامات اعمق من قضية «رأي» نختلف عليه ، او « اشاعة » نصدقها او نكذبها حسبما نريد . ان هذه الاتهامات تصدر عن دوائر معينة ، وتغذيها دوائر معينة ايضا . فلو اقسمت لرجالها بالله وبالانبياء، ولو حلفت لهم بكل الاولياء والصالحين ، ولو وضعت أمام اعينهم الحقائق الدامغة ، والبراهين الساطعة ، ولو انت جعلتهم يزورون مصر فردا فردا ، لما استطعت ان تغير لهم رأيا او تحولهم عن المقاصد التي يعملون من اجلها . ولئن كان هنالك من يعرف الحقائق فعلا ، بل لئن كان هنالك من يعرف كذب هذه الاتهامات مثل غيره ، فلا شك انه هو الذي يروجها ، ويدعو اليها ، وينادي بها . أو لا يعرف حكام اميركا وحكام العرب الملحقين بأمريكا ، ان هذه الاتهامات باطل محض ؟ بل أليس من البلاهة الكبيرة ان يجهلوا انها باطل محض ؟ وهذا لبنان الشقيق الذي لا يفد منه على سوريا في اليوم الواحد ، أقل من الف زائر، أيمكنه ان يجهل او يتجاهل حقيقة الوضع في سوريا ؟ ومع ذلك فان سوريا اصبحت في نظر فريق من ذوي المصالح فيلبنان بلدا تسيطر عليه الشيوعية العالمية ، كما تسيطر في مصر ، بل قل انه « عنزة ولو طارت » .

لقد قال اكرم الحوراني في تصريح جديد له : ان امريكا تصم بالشيوعية كل انسان لا يمشي في ركابها . ولا يرضى بسياستها . وهذا القول صحيح جدا جدا . وعلى هذا الاساس فان سوريا قد اصبحت شيوعية كمصر تماما ، لانهما بلدان لا يسيران في الركاب الامريكي . فاذا عرفت الشيوعية بمثل هذا التعريف ، وكان مضمونها الوحيد هو ارادة التحرر من الاستعمار ، والخروج من فلك الدول المتآمرة على مصير العرب ، فأهلا وسهلا بها من «شيوعية»

والحق ان منطق الاستعمار غريب جدا . ومفضوح ابله في الوقت نفسه : انه يرحب بالديكتاتورية تملأ السجون بالاحرار ، وتعطل الصحافة ، وتقتل كل حرية مدنية ، وتحل كل المنظمات المشروعة ، عندما تكون هذه الدكتاتورية لمصلحته . فاذا هي كانت احكاما عرفية رقيقة لا تزعج احدا ، ولا تغضب الا المتآمرين ، فانها تصبح دكتاتورية لا سبيل الى احتمالها . بل قل ان هذا الاستعمار يرحب بكل شر للبلاد ، ان كان هذا الشر في مصلحته . ويعادي كل خير للبلاد ، ان كان هذا الخير ضد مصلحته . ومن العبث ان تطالبه بالوقوف ، عند حدود المنطق الموضوعي المتفق عليه .

ولكن هل يعني ذلك كله ان مقال الاستاذ الخوري ليس بذي فائدة ؟ لا شك ان هذا امر لا يخطر بالبال ، فنحن بحاجة ماسة ، في كل يوم ، الى مثل شهادته . فلعل هنالك فئة من طيبي القلب ، المخلصين ،تغرر بهم الدعايات الاجنبية ، وينتهي بهم الامر الى تصديقها . فاذا ما جاءت شهادات متواترة من نوع شهادة الاستاذ الخوري ، كانت عونا لهم على تبديد هذه التهم من انفسهم ، وازالة ما قد يكون علق بأذهانهم منها .

ومع ذلك فاني كنت افضل ان يشتمل المقال على شيء آخر اكثر من مجرد دفع التهم ، أو تبرير ما هو صحيح منها . انني افهم ، من مقال الاستاذ الخوري مثلا ان الحكومة المصرية الزمت المدارس العلمانية او المسيحية بتعليم الدين الاسلامي . وهذا التدبير له ما يبرره في نظر

الاستاذ الخوري ، حتى لا تمتلىء عقول الناشئة غير المسلمة بأوهام باطلة عن حقيقة الدين الاسلامي . وهذا الهدف مشروع جدا . ولكن اليس بالامكان الوصول الى مثل هذه الغاية عن طريق آخر ، عن طريق ادخال مادة جديدة فى البرامج الدراسية ، هي مادة « تاريخ الاديان » مثلا ؟ مما يصل بنا الى الغاية نفسها ويبعد احتمال توجيه اية تهمة من التهم ، فى هذا المجال ؟

اما الانجراف فى التيار الشيوعي ، فانه ليس لوحده نظريا على الاقل بمناقض لسياسة التمييز الديني فقد يكون كلا الامرين واقعا ، بالرغم مما فيه من تناقض عقلي. والا فكيف نبرر فى العالم الديموقراطي وجود مبدأ حرية الرأي من جهة، ووجود سياسة عنيفة فى مقاومة الشيوعية فى الوقت نفسه ؟ وعدا ذلك فان من يكيل الاتهامات لا يهمه كثيرا ان يقع فى التناقضات المضحكة . بل المهم عنده ان يبلغ غايته من الناس ومن عقول الناس ، بكل طريقة مقبولة لديهم .

وآخر ما آخذه على مقال الاستاذ لخوري انه مجرد دفاع عن قضية مصر ضد كل ما يكال لها من الاتهامات . وعندي ان الغيرة على مصر والعروبة لا تعني ابدا اغفال مواطن الضعف ، ومجالات التقصير . فنحن بحاجة فى قضايانا القومية الى مصارحة زعمائنا وانفسنا بكل ما ينبغي ان يعرف ، وان يوضح ، وان ينقد ، وان يتهم ، فقد قيل : صديقك من صدقك لا من صدقك . فاذا لم يكن فى سياسة مصر الداخلية والخارجية أي موطن من مواطن الضعف والنقص ، فان ذلك لا يكون امرا طبيعيا . ولئن كان هناك شيء من هذا القبيل ، فليس من الاخلاص للعروبة ولا لجمال عبد الناصر ، ان نكتمه عنه ، او ان لا ندلي بنصيحة فى موضوعه .

اما الاستاذ محمد النقاش فى موضوعه « بعد ان تحول الاردن الى سجن كبير » فانه يطيب لي ان اعلن له عظيم اعجابي بتحليلاته ، ونفوذ نظراته ، ولا يسعني الا ان اصفق اذ اقرأ المقطع الاخير من مقاله :

« الخوف هو من الصهيونية . .

« ولكي نقوي على الصهيونية ، لا بد لنا من نظام داخلي تقدمي متطور ، يرفع مستوى السواد الاعظم ، فى حقول التربية والاجتماع والاقتصاد. وكل ملك أو رئيس جمهورية يكافح هذا التطور انما يكون عدو نفسه ، وعدو نظامه . »

بقي ان يسمع الملوك هذا الكلام الطيب ، وان يعوه . .

ـ البقية على الصفحة ٨١ ـ

الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر

بيروت

ص.ب ٤١٢٣ ـ تلفون ٣٢٨٣٢

*

الادارة

شارع سوريا ـ رأس الخندق الغميق ، بناية الاسمر

*

الاشتراكات

فى لبنان وسوريا : ١٢ ليرة

فـي الخـارج : جنيهان استرلينيان

او ٥ دولارات

فى اميركـا : ١٠ دولارات

فى الارجنتين : ١٥٠ ريالا

تدفع قيمة الاشتراك مقدما

حوالة مصرفية او بريدية

*

الاعلانات

يتفق بشأنها مع الادارة

*

توجه المراسلات الى

مجلة الآداب ، بيروت ص.ب. ٤١٢٣

الأبحاث

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٨ ـ

وقبل ان اصل الى محاضرة رفيقنا وزميلنا الدكتور عبد الله عبد الدائم ، احب ان اعلق بكلمة واحدة على بحث الشهر الفلسفي « الطبيعة والحضارة » لعزمي مورلي

ان المشكلة هنا ـ فيما يبدو لي ـ هي قلق الانسان المعاصر من تطور متناقض فى مجالين ، تطور قوى الانسان المادية ، وتضاؤل تطوره الروحي . وهذا ما يعبر عنه احيانا بقولهم : ان الانسان اصبح يضارع الاله فى القوة . ولكنه لايزال كالشيطان فى الاخلاق . غير ان من الصعب على من يقرأ هذا المقال ان يتابعه الى نهايته . ترى أمرد ذلك الى الترجمة وحدها ؟ أم الى طبيعة المقال الفلسفية ، التي لم تصقل اللغة العربية بعد ، كما ينبغي ، لحسن استيعابها . ولست ادري لم اذكر الآن كتاب « الاخلاق الى نيقوماخوس » المترجم بقلم احمد لطفي السيد ، لقد بقي فى ذاكرتي ان هذا الكتاب ترجمتان واحدة فى المتن وواحدة فى الهامش . وكأن ترجمة الهامش لم تكن الا ترجمة للترجمة . وعلى كل فقد كنت افضل قراءة اصل هذا المقال بالفرنسية .

ولنتناول الان محاضرة الدكتور عبد الدائم ، هذه المحاضرة التي تتناول موضوعا من اهم المواضيع التي تشغل بحق، بال الناس، فى ايامنا هذه . ولاسرع الى الاعتراف بأن ما جاء فى هذه المحاضرة يجب ان يعتبر جزءا من الثقافة القومية لكل شاب عربي متحرر ، وان من الخير ان يزداد البحث فى مثل هذه المواضيع الهامة . وان من واجب شبابنا المثقف الذي يحمل اعباء النهضة الحديثة ان يقدم لمعاصريه « افكارا ـ قوى » او افكارا حوافز ، بلغة الفيلسوف فوييه Fouillé ، وان لا ينسى ملء هذه الافكار العامة بمحتوياتها الواضحة ومعانيها المبينة !

وتقوم هذه المحاضرة على جملة فكر رئيسية ، منها عقم التغني الفارغ بماض غامض لا نعرفه تماما ، لما اصابه من اهمال المؤرخين السابقين الاعاجم وتقصيرنا نحن المعاصرين ، والصلة الوثيقة بين الماضي والحاضر ، وعقم التغني بالمستقبل الغامض ، دون تحديد واضح له ، ودون رسم الخطى المؤدية الى تحقيقه ، وخطأ اعتبار الفساد القائم اصيلا فى طبيعة المجتمع العربي ، وخطأ اعتبار الفساد نتيجة لتأخر المجتمع لا سببا له ، والتأكيد بان الاستعمار القديم والحديث هو المسئول عن هذا التأخر ، بالاضافة الى بيان او « كشف » بالوسائل التي يمكنها ان تضمن تحقيق المستقبل العربي ، كربط برامج الدراسة بحياة المجتمع العربي ربطا وثيقا ، والعناية بالتعليم المهني وتنمية الشعور الاجتماعي عن طريق المدرسة ، الخ . .

ولي على هذه المحاضرة ملاحظتان : الاولى هي ان من الخطأ الكبير ان نشيع فى الرأي العام ان الاستعمار هو المسئول الاول والاخير عما اصاب العرب من النكبات . ذلك انه اذا كان هذا القول مما يؤدي فى الوقت الحاضر الى نتائج مفيدة ، من حيث تركيز النضال ضد الاستعمار وتجميع قوى المقاومة ضده ، فانه ليس من الصحيح منطقيا، ان نعتبر هذه الفوائد معايير لصحة الرأي . ان الاستعمار مرض ، وهو لا يدخل الى الجسم الصحيح او القوي . فلا بد اذن وان يكون هذا الاستعمار قد سبق بمرحلة كان فيها الكيان العربي غير قوي . ويجب ان نعتبر انفسنا مسئولين عن هذا الضعف ، بصراحة وصدق واخلاص . فذلك مما يضع على عاتقنا مسئولية العمل الجدي لمقاومة الاستعمار ، بما ينبغي لهذه المقاومة ، من جد وتضحية ورصانة ، وعزم . اما الادعاء بان الاستعمار هو السبب فى كل علة ، فذلك مما يعفينا فى الواقع من كل مسئولية فى الكوارث التي اصابتنا . ان كل نوع من انواع المرض لا يصيب الا الاجسام المستعدة له .

اما الملاحظة الثانية فتتعلق بالوسائل التي ينبغي التشبث بها لتحقيق المستقبل العربي السيد . ولكن المحاضر هنا يفترض سلفا ان مثل هذه الوسائل ، يمكن ان يقوم بذاته ، او انه يكفي ان نريده حتى يتحقق ، فى حين ان الشيء الهام الهام ، هو ان توجد هذه الفئة الحاكمة التي تريد التشبث بمثل هذه الوسائل . ليس المهم ان نعرف ماذا ينبغي علينا ان نفعل للوصول الى هذا الفرق او ذاك ، بل المهم ان نريد او ان يوجد من يريد تحقيق هذا الفرق او ذاك . وهكذا تكون الوسيلة الاولى لتحقيق المستقبل العربي ، هي خلق الجيل الذي يؤمن به ، وتوحيد نضاله ، فى كل الاقطار العربية .

ولا شك ان الدكتور عبد الدائم لن يختلف معي على هذا الذي اقول . الا انه كان عليه ان لا ينسى الاشارة الى مثل هذه الملاحظات المبدئية .

وهنالك نقطة ثالثة اجد من واجبي الوقوف عليها قليلا : وهي النقطة التي تتعلق بعلاقة الحاضر بالماضي ، وعلاقة المستقبل بالماضي ايضا .

يقول الدكتور عبد الدائم : « فالمستقبل اولا لا ينفصل عن الحاضر ولا ينفصل عن الماضي . وأي بناء للمستقبل لا

يمكن ان يكون شيئاما لم تسجل معالم الماضي ، ومالم تتحقق اللحمة التي تربط وجود الانسان الحاضر بأصول هذا الوجود » وأقول بصراحة ان مثل هذه التأكيدات لا يستقيم فى العقل. فاذا كان المقصود باتصال الحاضر بالماضي ، واتصال المستقبل بالحاضر والماضي ، ان الزمان الواقعي الذي تعيه الذاكرة الانسانية ، متصل الحلقات حتما ، فذلك امر لا سبيل الى رده ابدا . وعندئذ يكون مثل هذا التأكيد نوعا من البديهيات . اما اذا كان المقصود ، هو ان من واجب المستقبل ان يلزم نفسه بالماضي الزاما ، فان قولنا هذا يصبح نوعا من احكام القيم ، لا من احكام الوجود ، وبالتالي فان ارادة المستقبل وحدها هي التي تفرض على نفسها التعلق بالماضي ، او عدم التعلق به . واراني فى هذه المناسبة اميل الى قبول رأي الدكتور زريق فى هذا الموضوع الذي يعتبر ان الجانب الحي من المستقبل ، والامين فى الوقت نفسه على الماضي ، لن يكون بالضرورة الا نوعا من الثورة والانتقاض على الماضي . ان عظمة الاسلام لم تقم على اقرار قيم الجاهلية ، بل على نقضها . وهي لم تقم على نقضها بالتهديم ، بل بزيادة الشمول ، والاتساع ، والفن ، وكذلك شأن مستقبل الجيل العربي مع ماضيه . ان عليه ان يهدم من الماضي هذا الجانب الذي فقد العنصر الانساني ، او تضاءل فيه النبل ، او غاضت منه ينابيع التجديد والابداع ، وليس من شأنه طبعا ان يهدم هذا الماضي، تهديما يسهل على «التقليديين» ان يصفوه بالردة او بالوثنية الجديدة .

ولاقف قليلا هنا . فما احسب اني سأختلف مع اخي الدكتور عبد الدائم على مثل هذه المواضيع ولكني اختلف معه حتما على انه رأى الا يشير اليها بتفصيل فى محاضرته ، وانني ارى ان من الواجب الاشارة اليها بتفصيل .

...

وهنالك مقالان اراهما جديرين بانتباه المطالع ، مهما تكن اراؤه فى الحياة : هما مقال التعذيب .. والشرف ، للدكتور سهيل ادريس ، ومقال عبد الحميد المهري عن « الجانب الانشائي فى الثورة الجزائرية » ، ويؤسفني اكبر الاسف الا يتسع المجال هنا لبيان نوع العواطف التي يثيرانها فى القاريء . فلاكتف اذن بتحية الصديقين ، كاتبيهما ، تحية الود والمحبة والوفاء .

دمشق — حافظ الجمالي

القصص

بقلم صلاح كامل

اشير ، بداءة ، الى ظاهرة فريدة فى « الآداب » هي ظاهرة «كثرة النقد». .. وأرى ان كتاب « الآداب » مساكين مرتين :

مرة عندما يحك صاحب « الآداب » نتاجهم بمحك مفاهيمه الادبية ومقاييسه النقدية القاسية التي تأبى على غير الاثر المعافى دخول ملكوت «الآداب»

ومرة عندما يضع مصير تقييم نتاجهم بين ايدي « قراء العدد الماضي من الآداب ».

وقراء « العدد الماضي » او نقاده ، مساكين مرتين :

مرة عندما يطلق صاحب « الآداب » الحرية لكتاب العدد الماضي بنقد النقد فى باب « مناقشات » وباب « صندوق البريد »

ومرة عندما يفرد الصفحة بعد الصفحة فى « الاداب » لرسم مخططات للنقد ، ووضع مقاييس للقصة والشعر والبحث تقوم فى اساس النقد وتغمز — بطريقة غير مباشرة — من نقد النقاد .

ففي كل جزء من اجزاء « الآداب » — ملحمة ، حتى ان الكتاب ليدفعون بنتاجهم الى « الاداب » وعينهم على باب « قرأت العدد الماضي » .. والنقاد يدفعون بنقدهم وعينهم على باب «مناقشات» وباب «صندوق البريد». وصاحب « الآداب » — كبيلاطس البنطي — يغسل يديه من دم الصديق ! لا عليه . ان الكتاب والنقاد راضون بالمصير الذي اراده لهم . وفي العدد الماضي من « الآداب » ثلاثة فدائيين فى ميدان القصة . وفى هذا العدد فدائي — هو انا — فى ميدان نقد القصص !

١ — ثـــوار

القصوصة من الاردن عنصرها الاول القومية . وطبيعي ان تؤثر اوضاع العرب الحالية — السياسية والاجتماعية ... — فى القصص العربي الحديث . ففي دنيا العرب شعور قومي جارف يجد فى القصة وسيلة من وسائل التعبير العربية من اجل التحرر والاستقلال

ومعلوم ان المحتوى وحده ليس الركيزة الوحيدة فى العمل القصصي الناجح . ثمة مزايا فنية فى التقنية والاداء تقترب معها الاقصوصة من الكمال الفني . واقصوصة « ثوار » غنية بهذه المزايا الفنية

فصبحي شحروري قاص موهوب يبني اقصوصته على « فكرة » ويغلب هذه الفكرة على عناصر الاقصوصة الاخرى دون ان ينال من وحدة الاقصوصة

بكلام آخر جعل من « الفكرة » — العنصر الرئيسي فى الاقصوصة — محورا تدور حوله — ومعه — العناصر الاخرى فى كل متحد لا تخلخل فيه ولا تنافر ، فان فكرة الوعي القومي تنساب بين احداث الاقصوصة وشخصياتها ومكانها وزمانها انسياب الخيط الرفيع الذي لا يفرض ظهوره الحاد فيقع الطلاق بين عناصر الاقصوصة ، ولا ينقطع ويمحي فتضيع الفكرة الرئيسية التي تقوم عليها الاقصوصة وينهار العمل القصصي .

*

تجري حوادث الاقصوصة وتتبلور فكرتها ويظهر اشخاصها فى اطار اولي من الذكريات وتداعي الافكار ، ثم فى اطار من الزمن الحاضر والمكان

فهناك ليل اسود وابن جالس فى العراء وعينه على الافق البعيد ينتظر عودة ابيه ، وفى نفسه يمتزج الخوف بالقلق ... يحاول ان يتخلص من ذكرى مرعبة فلا يستطيع ..

وجد نفسه يعود بعد سنوات الى الوراء . كان يومها يحرس حبات البندوره ... وفجاة افاق الى ان اباه — مثله اليوم — قد تأخر ، وان الظلام قد داهمه ، فشعر بالخوف وانطلق فى سرعة المجنون وكله رغبة فى ان يصل « الاسفلت » ...

كان يخاف الليل... وكان ابوه يقضي الليل كله وسط الظلام ولا يخاف . لماذا تذكر — او بدات عملية تداعي الافكار عملها فى ذهنه لتربط بين فكرة عدم الخوف وبين شيء يفتقده — تذكر حديث ابيه عن البارودة :

السلاح فى الليل صاحب .

وفى سياق الاقصوصة يلمس القاريء دور البارودة الكبير فى حياة

شخصياتها . يخرج من فكرة الظلام الذي يرعب الابن الى ظلام آخر ـ هو ظل الاستعمار ـ دون ان يدري كيف انتهى الى هذه النتيجة ، ويجد ان البارودة التي تجنب الاب فكرة الخوف من ليل الطبيعة هي وحدها التي تجنب العرب فكرة الخوف من ليل المستعمر ...

فالقاص لم يصرح بهذا كله بل لمح تلميحا من بعيد .. عن طريق الفن ... وهنا سر نجاح اقصوصته .

نعود الى الاقصوصة :

ينشط عمل الذكرى فى ذهن الابن ، بفعل تداعي الافكار . ففي سياق طبيعي بعيد عن التكلف نجد صورة البارودة تتجسد فى خياله . كان كل ما يعرفه عنها انها تقتل .. وان اقتناءها خطير قد يجر صاحبها الى الموت .

وتذكر ... تذكر المرة الاولى التي رآها فيها . كانت يوم استلها ابوه من حزمة حطب وصوبها الى قط يسطو على الارانب .. وقد حيره يومئذ ان العيون كل العيون كانت مشدودة الى الاب ، والى البارودة في يده. وحتى بعد ان نفق القط ظل حبل من الخوف والقلق يشد هذه العيون الى الاب ... فالعيون لم تكن تخاف القط وانما كانت تخاف شيئا رهيبا ... له علاقة قوية بخروج البارودة من مخبئها .

وبايماءة بارعة يبين القاص سبب القلق . فان ظهور البارودة كان يعني ان وجوها حمراء منتفخة (هي وجوه المستعمرين الذين لم يسهم) ستهبط القرية بعد يوم او يومين من اطلاق الرصاصة ، والكلاب الفخمة تسعى بين قوائم الخيل لتتسلق اكتاف رجل بعينه .. ورجال القرية سيحشرون فى رقعة البيدر الضيقة .. وكلمة جاسوس ستتبادلها الالسن فى اسف وحقد مريرين . ففي هذه الايماءة الى سر القلق صورة لوضع العرب تحت ظل الاستعمار

وتستمر عملية تداعي الافكار ، فان صورة الكلاب البوليسية الفخمة جعلت خيال الابن يسرح مع كلاب اخرى . لقد تمنى على والده ان يسمح له باقتناء كلب يزيد من شجاعته ، لكن الاب اقنعه بعدم امكانية ذلك

وينشط عمل الذكرى مرة اخرى . دخل القرية ليلتئذ والجو ظلام ، فوجد تحت شباك غرفتهم كلبا اسود ـ من « الكلاب الفخمة » ـ يأكل رغيفا دهن باللبن .. وسمع صوت المختار يحلف بانه لا يعرف عن صاحب البيت الا انه مسكين لم يفكر طوال حياته باقتناء سلاح .. وبين الخلق رأى الوجوه الحمراء المنتفخة .. ورأى جزماتهم تميل على اناس من بني جلدته .. وسمع كلمة « فكن عرب » . وعرف كل شيء. ورفع راسه الى وجه ابيه فجاءه الجواب : « انهم لن ينالوا شيئا ، وان البارودة ستظل فى مخبئها رغم سياط الجلد والماء المالح »

« السلاح فى الليل صاحب »

انقطع حبل الذكرى . كانت الظلمة موحشة ، لكنه ، الليلة ، لم يخف الليل . « ان شيئا ما قد حدث ، غير وجوه الاشياء والحوادث »

لم يبق يخشى الليل . وفى هذا القول اشارة مبطنة الى العرب الذين لم يبقوا يخافون الوجوه الحمراء المنتفخة . فالقاص يربط بطريقةغير مباشرة بين سيطرة الابن على الخوف من الظلمة وبين سيطرة العرب على الخوف من ليل الاستعمار

.. ان حوادث اطلاق النار قد تكررت .. والخيول هبطت القرية مئات المرات ... والوجوه الحمراء اخذت تبدو مكدودة مرهقة ... والهمهمة الخافتة العنيدة فى القرية تحولت الى استعداد ضخم . خرجت البواريد من حزم الحطب وتواترت انباء مصرع الجواسيس هنا وهناك ..

لقد بدأت المعركة .

ومشى الابن فى الظلام الى البيت لا تخيفه الضباع والارواح الشريرة .. اجتاز عتبة الدار هذه المرة ايضا .. لكن بشعور يطغى فيه الامل على كل شيء عداه . كانت الدار مضاءة كلها بالمشاعل .. ولم يكن الكلب الاسود (كلب المستعمر) يقعي تحت الشباك .. ولا الوجوه الحمراء المنتفخة تدوس بجزماتها الناس . كانت هناك وجوه سمراء حبيبة .. ودار ببصره فى الفناء الواسع يبحث عن ابيه .. فكان « ان رآه يتجمع كله فى نظرة هادئة مطمئنة تقول : لا تخف ، يا بني ، انهم ... الثوار »

بهذا ... بل باقوى فى هذا .. صور صبحي الشحروري يقظة العرب وصراعهم فى سبيل الاستقلال والحرية

« السلاح فى الليل صاحب » .. السلاح وحده وسيلة خروج العرب جميعا من « الليل الطويل »

قالها صبحي دون ان يقولها ، فكانت اقصوصة واحدة من الاقاصيص القومية القلائل التي تنبع من وجدان كاتبها ولا تعرف وجه الافتعال عدو العمل الفني .

٢ ـ عندما يستيقظ الخريف

اقصوصة عنصرها الرئيسي ... « الشخصية » . فالقاص خالد الشريقي يحاول فى اقصوصته ان يلقي ضوءا على جانب عتم من حياة امرأة جاوزت الثلاثينولم تعرف الحب ثم وقعت فجأة فى تجربة الغريزة .

وهذا اللون من الاقاصيص يقوم على التحليل النفسي اكثر ما يقوم . والمؤلف فى اقصوصته يعتمد ملاحظته فى تحليل نفسية بطلته . انه رجل يحلل نفسية امرأة لا يمكنه ان يحس احاسيسها . ومعلوم ان هذا اللون من الاقاصيص القائم على استبطان النفسية يتوقف نجاحه اكثر ما يتوقف على الاحساس المباشر بما يعتمل فى وجدان اشخاص الاقصوصة . هذا للقول ان مجال تحليل نفسية المرأة فى موقف مثل موقف بطلة هذه الاقصوصة هو مجال المرأة لانه لاصق بغرائزها ... بحميميتها .

حتى المرأة نفسها تضطرب فى وصف مثل هذا الموقف . وفى الادب العالمي كله لم ينجح غير الكاتبة الفرنسية « كوليت » فى طرق مثل هذا الموضوع الدقيق الذي يتطلب تحليل نفسية عانس فى ساعة استيقاظ الغريزة فى اعماقها .

فخالد الشريقي يطرق فىاقصوصته موضوعا من اصعب المواضيع ،طرقها من قبل ، ادباء عالميون ـ بلزاك ولورانس مثلا ـ واخفقوا بالنسبة الى « كوليت »

ومع هذا فان بداية الاقصوصة تجري فى سياق مشوق لذيذ ..

قدم « هو » لها « هي » ـ سميرة ـ احدى سجائره حين هم بان يدخل غرفته لينام .. كان يعلم بعدم رغبتها فى التدخين ، وكادت ترفضها لولا انه قال : « انا فى غرفتي عندما تريدين اشعالها »

ورأت فى عينيه الاصرار ... وشيئا اخر كان يتراقص امامها .. فمدت اليه يدها المعروقة وتناولت السيجارة

« انا فى غرفتي عندما تريدين اشعالها ».. انه يريدها ان تذهب اليه فى هذا الوقت من الليل بعد ان نام جميع اهله ليشعل لها سيجارة لا ترغب فى تدخينها ...

... ودخلت غرفتها

... تمنت لو قال لها اكثر من ذلك ، اذن لاستطاعت ان تفهم شيئا من مراميه .. لن تستطيع النوم قبل ان تحل هذه العقدة .. هل تذهب اليه لتسأله ماذا يقصد ؟

اعتقد ان الشريقي ـ رغم السياق الحلو الذي اجرى فيه بداية القصة ـ قد وقع في تناقض . فالبطلة لم تقبل السيجارة الا لانه قال لها « انا في غرفتي » انتظرك .. ولانها رأت في عينيه شيئا كان يتراقص امامها .. فهل يحتمل الوضع شيئا من الشك في تفسير قصده ؟

.. تململت في سريرها .. وفي خيالها مرت صور وذكريات من حياتها الفارغة ... صور وذكريات استغرقت المدى الاكبر من الاقصوصة . منها ما له علاقة بصاحب السيجارة ، ومنها ما له علاقة بحياتها المدرسية واهلها ، واهله ، ومهنتها . وفي هذه الصور والذكريات ينتصب سؤال في ذهن القاريء : هل تفكر المرأة على عتبة التجربة بمثل هذه الامور ؟

اظن ـ ولا اجزم ـ ان المرأة في مثل هذا الموقف تتصور اشياء عن الجنس .. وتحس بالخوف والقلق والحيرة ، ولا تذهب الى استعراض مراحل حياتها . ومهما يكن الامر فان الشريقي كان باستطاعته ان يجعل هذا الشق من الاقصوصة في البداية فيتخلص من هذا الموقف الحرج ولا يترك مجالا للتساؤل في ذهن القاريء

« انا في غرفتي عندما تريدين اشعالها »

ويعود الزخم في التصوير والتحليل :

... تململت في سريرها ، وازاحت الغطاء عن انفها ، واخرجت يدها كانها لم تبق بحاجة لان تنام .. وانقلبت على صدرها ، وشعرت انها تريد ان تضغط بجسمها على الفراش ، وان شيئا ما يتوغل في اعماقها لم تشعر به من قبل ..

ونهضت من فراشها ... وقفت امام المرآة وتطاولت على رؤوس اصابعها لترى في صدرها شيئا لم يثر انتباهها من قبل ، فغطته بيديها ، وضغطته بشدة ، وارادت ان تلتصق بالحائط ، بل ارادت ان تفعل شيئا اكثر ...

هذا التحليل لنفسية المرأة في فوران شهوتها ، على عتبة الخطيئة ، اقرب الى المنطق من شرودها في عالم الصور والذكريات

... تقدمت على رؤوس اصابعها ووقفت امام باب غرفته ، وشعرت بضربات قلبها ...

... وقبضت على الاكرة .. وادارتها

.. كان ممددا على سريره ... وقفت بالباب ، واحست بحرارة وجهها ... ارادت ان تهرب ، وان تلوم نفسها ، بل ربما ارادت ان تبكي ولكنها لم تفعل

... شعرت برجليها تتقدمان منه .. وان يدا تلف خصرها ... و... وكانت الخطيئة

ان الشريقي مع انه طرق موضوعا صعبا طرقه غيره كثيرون استطاع في نهاية الاقصوصة ان يأتي بنهكة جديدة في تحليل نفسية امرأة في الخريف على عتبة التجربة

وباعمال القلم قليلا في مجرى تسلسل الحوادث .. وفي طبع الشق الخاص بالصور والذكريات بطابع التحليل يخرج بعمل فني متماسك في ميدان القصة العربية الحديثة

٣ ـ « هذه ليست خطيئة »

هذه الاقصوصة هي اعتراف مسيحي .. او مشروع اعتراف اصطنعه المؤلف للسخرية من قشور الدين .. ولتقرير فكرة وطنية فيها «الخلاص» من « النكبة »

فيها ـ في الاقصوصة ـ عرض لسلسلة خطايا ـ في مفهوم الدين ـ اقترفتها امرأة ... بل سلسلة « شبه خطايا » تعترف بها قروية باسلوب ظاهره الندم وباطنه السخرية

واعترف اني لم اقرأ ، في ادب الشباب ، ادبا ساخرا « جاحظيا » مثل اقصوصة جورج جبور .

فالمرأة تعد اعترافها ، بل تعترف بانها اخطأت حين لعنت « دين ابنها » في ساعة غضب .. وتعترف بانها اخطأت حين لم تحضر القداس في يوم احد من ايام الشتاء الماضي .. وتعترف بانها اخطأت حين تضايقت من جارتها ورفضت ان تعيرها مصفاية الحليب

« هذه ليست خطيئة يا ابونا .. صحيح اني ندرت للكنيسة خمسا وعشرين ليرة ان شفي ابني (وشفي) ولم افها ، ولكن حساب الحقل يا ابونا ما طبق على حساب البيدر »

ماذا حدث ؟

« كبر القمح وظل يكبر ... كانت السنبلة مثل القامة المشوقة .. كنا نأكل ونحن نصلي ، ونشرب ونحن نصلي ، ونقف ونحن نصلي ، ونقعد ونحن نصلي ... كان القمح يحتاج رية مطر واحدة ، رية واحدة يا ابونا، طلبناها من الله كثيرا ، ولكن يظهر (انتبه الى السخرية هنا) ان قلوبنا لم تكن صادقة ..»

« فلو نزلت رية مطر واحدة يا ابونا ما كنا وصلنا الى هذه الحالة (كانت استطاعت ان تفي الندر) ... كانت الشمس تطلع علينا حادة ... قتلتنا وقتلت الزرع .. لماذا عاملنا الله هذه المعاملة ؟ ان كلمة مثل يلعن دينك تخرج في ساعة غضب وطيش ورعونة يجب ان يحتملها »

ويمضي القاص في سخره اللاذع على لسان الريفية « الخبيثة » :

« في الحقيقة كنت انوي ان افيه حتى بعد ان يبس الزرع ، كي لا يعيدها الله معنا في القمح مرة ثانية .. لكن الحكومة اخذت من كل تلميذ في المدرسة خمسا وعشرين ليرة من اجل بدلات الفتوة »

الم يقل لها زوجها ان على الناس ، كل الناس ، ان يتدربوا على البارودة والمدفع لان القضية قضية حياة وموت ؟ الم يقل لها ان تدفع لابنها ثمن البدلة احسن من ان يصبحوا مثل اهل فلسطين ؟

« اعطيت ابني ثمن البدلة يا ابونا . صحيح اني لم اف الندر ، ولكن الله في الحقيقة يعرف احوالنا ... هذه ليست خطيئة يا ابونا ، وانا لا اقبل ان اسميها كذلك . اني لا اطلب الصفح عنها من سيدنا المسيح لانها ليست خطيئة »

فاجمل ما في هذه الاقصوصة تكرار لفظة « يا ابونا » الخبيثة .. في معرض اعتراف خبيث غايته الدعوة الى عمل وطني جليل

كل الاقصوصة « خبيثة » ساخرة تقرأها مرة ومرة ولا تشبع منها ومع ذلك يجبهك سؤال بل اسئلة :

هل هي اقصوصة تامة الشروط ؟

وهل يمكن ان نلقى في امرأة ريفية مثل هذا القدر من الخبث «الواعي» وهذا السخر اللاذع لا يحسنه غير المثقفين الخبثاء الساخرين مثل جورج جبور ؟

الحقيقة ان « هذه ليست خطيئة يا ابونا » هي لون جديد في ادبنا . وقد حرت في امرها : كل ما فيها يصرخ بانها ليست اقصوصة .. وكل ما فيها يصرخ بانها لذيذة لا يشبع منها ... الذ من الف اقصوصة !

فهل بين قراء الآداب ونقادها من يكشف لي السر المحير؟

صلاح كامل